عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت * يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر ـ ١٩٧٩
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

التجربة الاسلامية

التمهيد	بقلم مستشار التحرير	٣
المسجد فى الاسلام	الدكتور محمد توفيق بلبع	١١
الاسلام فى أرض الاندلس	الدكتور احمد مختار العبادى	٥٩
الاسلام والترك	الدكتور سعد زغلول	١١١
الاسلام والتعريب	الدكتور سعيد عاشور	١٦٩
الاسلام فى أندونيسيا	الدكتور فيصل السامر	١٩٥
الاسلام فى الكتابات الغربية	الدكتور محمد توفيق حسين	٢٢٥

• • •

مطالعات

الاستشراق والمستشرقون	الدكتور احمد ابو زيد	٢٥٥

• • •

من الشرق والغرب

الطب العربي	الدكتور سليمان قطاية	٢٧٧
الصناعة الطبية فى العصر الاسلامى الذهبي	الدكتور سامي حمارنة	٢٩٥

• • •

صدر حديثا

عصر أزدهار بلاد الفرس	عرض وتحليل الدكتور طه ندا	٣٢٥

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

أحمد أبو زيد

الإستشراق والمستشرقون

خلال الاحداث الدامية والحروب الداخليةالتى مر بها لبنان عام ٩٧٥ ــ ١٩٧٦ والتى مزقت المجتمع اللبنانى شر ممزق كتب أحد الصحفيين الفرنسيين بعد زيارة قصيرة الى بيروت يقول « لقد كانت بيروت تبــدو فى وقت مــن الاوقات(وقبل أن تمر بهذه الاحداث الدامية) مدينة تنتمى الى الشرق ... الشرق الذى كتب عنه شاتوبريان Chateaubriand[r] ونيرڤال Nerval » .... هذا الشرق الذى كان الى حد كبير (اختراعا أوربيا) والذى كان يعتبر فى نظر الكثيرين مركز الرومانسية ، بحيث كان يلهب دائما خيال الكتاب والمكتشفين والمغامرين . ولكن هذه الشرق المتخيل أو الخيالى الرائع ، الذى لايكاد الشرقيون أنفسهم يتعرفون عليــه أو يعترفون بوجوده ، أخذ يختفى بسرعة فائقة ... يختفى من الوجود مثلما يختفى من كتابات الكتاب لكي يحل محله شرق آخر أكثر واقعية وأشدالتصاقا بالحقيقة وأكثر ابتعــادا عــن خيــال الرومانســيين . وبــدأ الكتاب الغربيون يبذلون جهودا أكثر صدقا لكي يتعرفوا على حقيقةالاوضاع

(*) اعتمد هذا المقال فى الاصل على عرض لكتاب من اهم الكتب عن الاستشراق واحدثها جميعا وهو كتاب : ــ

Edward W. Said, **Orientalism,** Routledge and Kegan Paul, London & Henley, 1978.

ولكننا استعنا بالاضافة الى ذلك بعدد كبير من البحوث والكتب الاخرى ، يجد القارىء اشارة الى بعضها فى نهاية المقال .

فى ذلك الشرق ، وحقيقة أسلوب التفكير الشرقي، ويقدمون بناء على ذلك دراسات أعمق وأصدق تختلف اختلافا كبيرا عن تلك الكتابات التى أسهم بها الروائيون والشعراء والرحالة والمغامرون ، والتى يصورون فيها الشرق والشرقيين ، ليس على ماهم عليه فى الحقيقة والواقع ، بل حسب ما كان يتراءى لخيال هؤلاء الكتاب ... ولقد كان الشرقيون ـ ولا يزالون ـ يتألمون ويعجبون حين يقرأون ماكتب عنهم فى تلك الكتابات ، ولكن الغريب فى الأمر هو أن الكثيرين من هؤلاء الشرقيين أصبحوا يعتقدون أن حياتهم وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم هى ماتظهر فى تلك الكتابات ، أى أنهم أصبحوا ينظرون الى أنفسهم بعيون الآخرين ، وهى عيون لم تكن قادرة فى معظم الاحيان على التمييز بين الصدق والكذب ، أو بين الحقيقة والخيال . ولكن مهما يكن من امر هذه الكتابات وقربها أو بعدها عن الحقيقة والواقع فانها تؤلف جانبا كبيرا من أحد مجالات المعرفة الانسانية التى تحتل مكانة مرموقة بين سائر المعارف ، بحيث أنشئت من أجلها مقررات فى الجامعات ، بل ومعاهد وكليات ، ونعنى بها مايطلق عليه عموما (الاستشراق Orientalism) ، وهي تسمية لها دلالتها بقدر مايحيط بها من غموض أو عدم وضوح . وربما كان هذا الغموض أحد الاسباب الأساسية التي ساعدت ـ رغم ماقد يبدو فى ذلك من تناقض ـ على تقدم الدراسات الاستشراقية واحتلالها لهذه المكانة ، بالنسبة لنا من ناحية ، وبالنسبة لاعداد كبيرة جدا من الباحثين والعلماء والمثقفين فى مختلف أنحاء العالم من ناحية اخرى .

ولقد اختلف الغربيون اختلافا كبيرا فى تصورهم لمفهوم الشرق . فالامريكيون مثلا حين يتكلمون فى دراساتهم عن الشرق والاستشراق والمستشرقين انما يعنون بوجه خاص الشرق الاقصى والصين واليابان ، والمختصين فى لغاتها وشعوبها ، وهم فى ذلك يختلفون عن الفرنسيين والبريطانيين الذين يعتبرون الشرق هو (الشرق) المجاور لأوروبا ، والذى كان ولا يزال يرتبط بالغرب ارتباطا وثيقا، والذى كان يؤلف (أقرب) وأعظم وأغنى وأقدم مستعمرات الغرب ، كما كان مصدر حضارته ولغاته ، وفى الوقت ذاته يعتبر ـ أو كان كذلك فى بعض مراحل تاريخه على الاقل ، منافسا وغريما ثقافيا له ، بحيث لايكاد (الغرب) يفهم الآن الا بالاشارة الى الشرق والعكس بالعكس . والواقع أن فكرة (الشرق) تستخدم فى كثير من الاحيان لتوضيح فكرة (الغرب) على اعتبار ان بينهما ـ كما يقول ادوارد سعيد ـ كثيرا من التقابل بل والتناقض ... فهما نقيضان فى كل شيء تقريبا ... فى الصورة والشكل والفكرة والشخصية والتجربة ... ولكن هذا **يجب** الا يعنى أن فكرة الشرق فكرة خيالية تماما ، فلقد كان الشرق دائما جزءا متكاملا مع الحضارة الأوروبية **المادية** ، كما أن الاستشراق يعبر عن هذا **الجزء** ثقافيا وأيديولوجيا ، وذلك عن طريق التوفر على دراسة كل ماهو شرقي وكل مايمت الى الشرق بصلة ، واستخدام نتائج هذه الدراسة فى مختلف المجالات ، سواء المجالات العلمية الاكاديمية البحتة ، أو المجالات السياسية بما فى ذلك العمل على توطيد أقدام الاستعمار فى الشرق واخضاع شعوبه لسيطرة الغرب المستعمر .

وعلى اية حال ، فان **الاستشراق** يؤخذ عادة بعدة معان ، وكنها كلها معان متداخلة ومتكاملة .. ولعل أهم معنى للكلمة هو المعنى الاكاديمى حيث تطلق كلمة مستشرق ـ بشيء غير قليل من التجوز ـ على كل من يتخصص فى أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو

بعيد . وحتى عهد قريب جدا كانت هذه الكلمة تطلق على دارسى الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية أو المتخصص فى تاريخ احدى الدول الشرقية ، او حتى المتخصص فى سوسيولوجية أو انثريولوجية الشعوب الشرقية ، أو ما الى ذلك . ويبدو أن هذا الميل القديم لاطلال مصطلح استشراق على كل هذه الدراسات المتعددة المتباعدة المتباينة بدأ الآن فى الانحسار، اذ لانكاد نجد عالم الانثروبولوجيا مثلا الذى يدرس احدى الثقافات الشرقية يسمى نفسه مستشرقا على ما كان يحدث فى القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن . وهذه مسألة سوف نعود اليها مرة أخرى فيما بعد ، ولكن المهم هنا هو أن كلمة استشراق وكلمة مستشرق آخذ تان فى الاختفاء فى الاوساط العلمية والاكاديمية لتحل محلهما كلمات أخرى اكثر دلالة على التخصص العلمى .

وثمة مفهوم آخر للاستشراق اكثر عمومية وهو اعتبار الاستشراق أسلوبا للتفكير يرتكز على التمييز الانطولوجى والايستمولوجى بين الشرق Orient والغرب Occident ولقد أدى هذا المفهوم بعدد كبير من الكتاب ـ ويدخل فى ذلك الروائيون والشعراء ـ والفلاسفة والمنظرون السياسيون ، بل وأيضا الاقتصاديون ورجال الحكم والادارة ايام الاستعمار ـ الى أن يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب كنقطة انطلاق لاقامة نظرياتهم ، أو وضع رواياتهم وملاحمهم (مثل **أنشودة رولان** المشهورة Chanson de Roland ؛ [ ) وكتاباتهم الاجتماعية ودراساتهم المختلفة عن النمو الاقتصادى للشرق وافكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية وعاداتها و (عقلياتها) ومصائرها وما الى ذلك . وهذا المفهوم الواسع الفضفاض لكلمة (استشراق) يسمح لنا بأن ندخل فى عداد المهتمين بالشرق كل فئات الكتاب والمفكرين والادباء وغيرهم ممن عالجوا (حياة الشرق) فى مؤلفاتهم بصرف النظر عن ماهية هذه المؤلفات ، وبذلك يمكن ان يندرج فيهم ايسكيلوس Asschylus مثلا وفيكتور هيجو Victor Hugo ودانتى Dante وكارل ماركس وغيرهم . الأن هذا المفهوم يصطدم بعقبات كثيرة هامة تتعلق فى الاغلب بالمنهج العلمي . ومع اهمية بعض هذه الكتابات من حيث انها تلقى أضواء كثيرة على مفهوم (الغربيين) عن الشرق والشرقيين فانها فى غالبيتها تخرج عن النطاق العلمي الدقيق ويدخل معظمها فى باب التخيل الذى لايخلو من تحامل وجهل كما هو الحال مثلا فى كتابة دانتي عن الاسلام ونبي الاسلام والصفات والنعوت التى وصفهما بها .

وليس من شك فى أن الانتقال من مفهوم لآخر ، أى بين **المفهوم الاكاديمى والمفهوم التخيلى** للاستشراق كان قائما طيلة الوقت بحيث كان **يحدث كثير من اللبس والخلط بينهما ، ولكنه** ازداد بمرور الزمن ثم أصبح أكثر تنظيما فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأدى ذلك بالضرورة الى ظهور مفهوم ثالث للاستشراق كان يتميز على المفهومين الآخرين **بوضوح النواحى التاريخية** والمادية فيه . وقد تمثل هذا المفهوم بوجه خاص فى المحاولات الكثيرة التى قام بها المتخصصون فى الدراسات الشرقية لاقامة نظريات منهجية متماسكة ومنطقية تعبر عن وجهات نظر محددة، وتستند الى معلومات دقيقة ويقينية بقدر الامكان ، ثم تدريس هذه النظريات ومحاولة نشرها على نطاق واسع بحيث أصبح الاستشراق فى آخر الأمر أسلوبا (غربيا) لفهم الشرق والسيطرة عليه ومحاولة اعادة تنظيمة وبنائه وتوجيهه والتحكم فيه ، وباختصار شديد أصبح هذا المفهوم للاستشراق يهدف فى آخر الأمر لاخضاع الشرق للغرب . لقد أصبح الاستشراق

أداة ووسيلة للتعبير عن التناقض والتباين بين الشرق والغرب ، وهذه فكرة استخدمها ميشيل فوكو Michel Foucault فى الاصل ووجدت لها صدى واسعا . والواقع أنه بدون هذه الفكرة فلن نستطيع أن نفهم الطريقة التى أمكن للثقافة الاوروبية ان تدرس بها الشرق سياسيا واجتماعيا وايديولوجيا وعلميا بل و(خياليا) كذلك ، ان أمكن استخدام هذه الكلمة هنا ، أثناء فترة مابعد عصر التنوير . ومنذ ذلك الحين أصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة . ويفرض موضوعات معينة تدرس بطريقة معينة بالذات . ولا يعنى ذلك أن الاستشراق ، كموضوع للتخصص ، كان يحدد على المتخصصين مايمكن أن يقال ومالا يقال عن الشرق ، بل انه يعنى أن الاستشراق أصبح مجموعة الاهتمامات التى كان يجب ان يأخذها الباحث والمختص فى اعتباره حين يتعرض لدراسة موضوع يتعلق بالشرق .

ولقد كان هناك دائما اختلافات واسعة بين اهتمامات الفرنسيين والبريطانيين من ناحية ، واهتمامات الامريكيين من الناحية الاخرى ، فيمايتعلق بدراسة الشرق ومجالات هذه الدراسة . لقد كانت فكرة الاستشراق فى الاصل ، وحتى الحرب العالمية الثانية ـ (مشروعا) ثقافيا بريطانيا وفرنسيا الى حد كبير ، وكان هذا (المشروع) من السعة والتنوع بحيث كان يمتد ليشمل كل الشرق ، بما فيها الاراضى المقدسة من ناحية ، والهند من الناحية الاخرى . وبحيث كان يغطى موضوعات متباينة تتراوح بين البحوث العلمية والفرق والمذاهب الدينية وتجارة التوابل والجيوش الاستعمارية والفلسفات والحكم التى أمكن تطويعها بحيث تلائم الذوق الغربى ، وقائمة طويلة جدا من الموضوعات الاخرى المختلفة التى تكشف عن تفاوت وتنوع الاهتمامات ومدى هذا التفاوت والتنوع . ولقد ظل هذا الاهتمام الناجم الى حد كبير عن القرب الفيزيقي قاصرا على بريطانيا وفرنسا الى أن تمكنت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية من السيطرة على (الشرق) واصبحت تلعب بالنسبة له الدور الذى كانت تلعبه تلك الدولتان من قبل . وعلى أية حال فان هذا الاتصال بالشرق كان خصبا وكانت حصيلته هائلة ، وهذه الحصيلة هى التى تؤلف الآن المادة العلمية للاستشراق .

• • •

وليس الشرق مجرد فكرة خيالية فى أذهان الكتاب ، وانما هو واقع تاريخي وجغرافى ، صنعه الشرقيون بانفسهم لأنفسهم بنفس الطريقة وبنفس المعنى اللذين نقول بهما أن الغرب واقع تاريخي وجغرافى صنعه الغربيون بأنفسهم لأنفسهم وبجهودهم الخاصة . فلكل من الشرق والغرب تاريخ ومنهج فكرى وأسلوب للحياة وطريقة للتعامل خاصة به ، وأن كان كل من هذين (الكيانين) التاريخيين والجغرافيين يستمد وجوده بشكل ما من وجود الاخر ويساعد فى الوقت ذاته على فهمه . الا أن هذا يجب أن يؤخذ بشىء من التحفظ الذى يتمثل فى :

أولا ـ اذا كان من الخطأ اعتبار الشرق على أنه بالضرورة فكرة أو أنه (كيان) لايتمتع بوجود حقيقى فان هذا لايعنى أبدا أنه لم يكن قادرا على اثارة خيال الكتاب ، أو أن اهتمام الغربيين به كان يرجع الى أسباب عملية وأهداف نفعية بحتة . حين يتعرض لدراسة أى موضوع يتعلق بالشرق ،

وحين قال دزرائيلي Disraeli فى روايته Tancred ان الشرق « مهنة » فانه كان يعنى فقط أنه كان دائما خليقا باثارة اهتمام **الشبان اللامعين في بلاد الغرب ، بحيث كان** يستغرق كل خيالهم ووجدانهم ، ولم يكن يعنى ابدا أن الشرق كان **مجرد** مهنة وعملا يتعيش منه هؤلاء (السكان) اللامعون الذين أتيحت لهم فرصة العمل فى الشرق والاقامة فيه .

ثانيا ـ أنه من الصعب دراسة الثقافات والتواريخ دون أن تتطرق فى الوقت ذاته الى قوة هذه الثقافات وعمقها والدور الذى يلعبه التاريخ فى تعميق هذه الثقافات وارساء قواعدها. ولذا فان من الخطأ والخطر أن نعتقد أن الشرق والاستشراق مجرد (خلق وهمي) أو ضرورة من صنع الخيال . ولقد كانت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة قوة وسيطرة نجد لهما تعبيرا فى عناوين الكتب الكثيرة التى تعرضت لتلك العلاقة مثل كتاب بانيكار Panikar عن « آسيا والسيطرة الغربية **Asia and Western Dominance** » . فظهور الاستشراق لم يكن مجرد نتيجة (لاكتشاف) ماهو شرقي على أيدى الاوروبي العادى فى القرن التاسع عشر ؛ بل أيضا نتيجة للاعتقاد بأنه يمكن اخضاع الشرق **وخلق** ما يمكن تسميته (بالشرقي) . وربما كان فلوبير Flaubert خير مثال لذلك . فحين قابل روايته سلامبو Salammbo محظية مصرية فانه يكتب لنا مايصبح مثالا قويا للمرأة الشرقية بسلوكها وقيمها وأنوثتها وتحررها الجنسي ومكانتها بالنسبة للرجل...ولم يسمح فلوبير فى روايته لكوجول هانم بأن تتكلم أبدا عن نفسها ، أو أن تعبر بطريقتها الخاصة عن مشاعرها وانفعالاتها ووجدانها ، أو أن تبدى شيئا من عواطفها ، أو حتى أن تكشف لنا عن تاريخها من وجهة نظرها وبأسلوبها الخاص ، ولكنه كان هو الذى تكلم عنها وهو الذى حاول أن يصورها لنا حسب ما تراءى له ... لقد كان رجلا (ذكرا) اجنبيا وغنيا ، وهذه كلها حقائق (تاريخية) **تعطى** لمن يملكها القدرة على السيطرة والتملك والنفوذ ، وهي كلها عوامل ساعدته ليس فقط على أن « يمتلك » كوجول هانم جسديا ، بل وأن يتكلم نيابة عنها ويخبر القراء عن كيف أنها امرأة شرقية مثالية » أو أنها « مثال للمرأة الشرقية » . ويذهب ادوارد سعيد فى ذلك الى القول بأن موقف فلوبير المتسلط القوى ازاء كوجول هانم ليس هو المثال الوحيد فى هذا الصدد ، وانما هو يمثل نمطا عاما سائدا بين الكتاب فيما يتعلق بالصلة بين الشرق والغرب والتعارض بينهما .

ثالثا ـ يجب ألا نعتقد أن « بناء الاستشراق » هو بناء يقوم كلية على الاكاذيب والخرافات ، والاوهام والاساطير والتخيلات التى لاترتكز على وقائع قوية محسوسة وملموسة . وأقل مايمكن أن يقال عن الاستشراق انه علامة واضحة لها دلالتها ومغزاها من حيث انه يعبر بشكل قوى عن السيطرة الحقيقية التى تتمتع بها أوربا وأمريكا على الشرق . وهذا نفسه انعكاس لواقع لايمكن الشك أو التشكيك فيه ، وربما كان هذا من اهم المبررات والدواعى التى تحتم علينا ان نحاول التعمق فى التعرف على الجهود التي بذلت لاقامة هذا الصرح القوى المتين من الدراسات المتشابكة المعقدة المتعلقة بالشرق . وليس من شك فى أن أى موضوع للبحث والدراسة يستطيع البقاء والصمود منذ كتب ارنست رينان Ernest Renan فى الاربعينات من القرن التاسع عشر حتى الآن، وأن يجذب اليه اهتمام كل هذا العدد الوفير من العلماء من انجلترا وفرنسا وبقية أنحاء اوربا، وبخاصة ألمانيا وايطاليا ، وأن ينتقل بعد ذلك

الى امريكا لابد ان يكون شيئا اكثر من مجرداكاذيب واختلاقات من صنع الخيال ، وان المادة الوفيرة التي جمعت خلال هذه الفترة لابد انتكون ذخيرة وغذاء لاجيال متعاقبة كثيرة من الباحثين والدارسين . ولايعني هذاأن الاستشراقبرىء تماما من الكذب والاختلاق والتوهم التى ينبع بعضها عن الجهل والبعض الاخر عن الاستعلاء. ولكن من العسف أيضا ان ننكر على الكثيرين من الكتاب ما بذلوه من جهد صادق ومن وقت ومال ،وان كانت هذه الجهود كلها تنبع أساسا من فكرة القوة والسيطرة التي كان الغرب يتميز بها علىالشرق والتى مكنته من اخضاع الشرق لحكمه وأحكامه .

كل هذا معناه أن الاستشراق ـ كما يعتقدالكثيرون من الكتاب الشرقين الذين تعرضوا لهذا الموضوع بالمناقشة ـ ظهر فى الاصل استجابةلبعض التنظيمات السياسية ، أو على الاقل كانت تلك التنظيمات السياسية أحد الدوافعوراء ظهوره كمجال متميز من مجالات المعرفة والدراسة ، وبذلك فان الاستشراق والمعرفةالاستشراقية فيها جانب سياسى لايمكن انكاره، وهو من هذه الناحية لا يمكن اعتباره معرفةعلمية خالصة او موضوعية . ومع أن معالجة فلوبير للشرق فى رواية سلاميو عرض جمالىوفنى يختلف اختلافا كبيرا عن دراسة سيرها ملتون جب H. A. R. Gibb فى كتابه عن« الاتجاهات الحديثة فى الاسلام Modern Trends in Islam » والذى يعتبر معرفة علميةهادفة يمكن أن تستغل سياسيا ، فان المعالجتين تصدران عن موقف واحد هو موقف الاستعلاءوالرغبة فى التحكم والسيطرة ... ومع ذلك فلا يمكن الزعم بأن السياسة كانت هى الدافعالوحيد لقيام الاستشراق أو الموجه الوحيد للدراسات الخاصة بالشرق ، وانما كانتالظروف والاوضاع الثقافية العامة السائدة أن الغرب يتطلب قيام هذا الفرع من المعرفةايضا . فليس الاستشراق اذن مجرد موضوع سياسى ، كما انه ليس مجرد مجموعة ضخمةمن النصوص المتعلقة بالشرق ، او انه مجرد تعبير عن خطة أو مؤامرة غربية استعمارية تهدفالى وضع الشرق ، وانما فى مكان ادنى وأقل من الغرب ، وانما هو مزيج من الادراك الجغرافىالسياسي والتعبير عنه جماليا وفنيا وعلميا وسياسيا واجتماعيا وتاريخيا وانثربولوجياولغويا ، ووسيلة لابراز الاهتمامات العديدة المتباينة والمتضاربة التى تكشف فى آخر الآمرعن التعارض بل والتناقض بين الشرق والغرب، رغم مايختفى وراء هذا التعارض والتناقض من تكامل .

●●●

ولقد كتب الشيء الكثير عن الشرق ، وهومايؤلف مادة الاستشراق .. ومنالصعبالاحاطة بكل ما كتب فى الموضوع ، خاصة وأن معالجة أىنقطة لا بد من أن تجر الباحث الى نقاط وموضوعات أخرى كثيرة متنوعة ومتشعبة قدلاتخطر للباحث على بال فى بداية الأمر . وحتى حين يعرض الباحث لدراسة موضوع محددمثل التجربة البريطانية او الفرنسية عن العرب والاسلام فانه يجد نفسه مضطرا فى الاغلب الىأن يتطرق لموضوعات ومجالات أخرى عديدة تخرج عن هذا النطاق المحدود نسبيا وان كانتتتصل به بشكل أو بآخر ، وتساعد فى القاء الضوء على هذا الموضوع المحدد . فليس من شكفى أنه قد يكون من الصعب دراسة اهتمامات

الفرنسيين مثلا بالشرق الادنى عموما أو بسوريا ومصر دون أن نأخذ فى الاعتبار فى الوقت ذاته توسط أوروبا فى مناطق أبعد مثل الهند أو فارس، وبالذات الدور الذى لعبته السياسة البريطانية فى الهند ، وردود افعال الفرنسيين ازاء قوة بريطانيا المتزايدة فى البحر المتوسط والشرق الاقصى ... بل ان هذا نفسه يصدق على أية محاولة لدراسة حياة المستشرقين أنفسهم ، وبالذات المستشرقين الذين لعبوا دورا رئيسيا فى تقدم حركة الاستشراق وتطويرها .. فلم يكن سيلفستر دوساسى Silvestre de Sacy مثلا هو مجرد أول مستشرق أوروبى حديث اهتم بالاسلام والادب العربي وديانة الدروز وتاريخ فارس الساسانية فحسب ، وانما كان أيضا استاذ شمبليون Champollion وفرانز بوب Franz Bopp ، كما كان مؤسس علم اللغويات المقارن فى ألمانيا . وهذه كلها نواح لابد من أن تؤخذ فى الاعتبار حين تدرس حياته وأثره فى حركة الاستشراق والمستشرقين . وهذا الكلام نفسه يصدق على الكثيرين من كبار المستشرقين مثل ادوارد وليام لين Edward William Lane الذى تعددت مواهبة واهتماماته بحيث تجد كتاباته يقرأها الآن علماء متخصصون فى عدد كبير من فروع المعرفة ، كما هو شأن كتابه عن « المصريين المحدثين **Manners and Customs of the Modern Egyptians.** الذى قرأه عدد كبير من الكتاب وتأثروا به من أمثال نيرفال وريتشارد بيرتون Richard Burton وفلوبير نفسه ، وكان هذا الكتاب يعتبر بالنسبة لهم ولغيرهم من أهم مصادر المعلومات ، وقد استمدوا منه الكثير ، واستخدموه فى كتاباتهم الخاصة ليس عن مصر فقط بل وعن الشرق كله ، أى أنهم كانوا يعممون أحكام وآراء لين بحيث تنطبق على المجتمعات والثقافات الشرقية الاخرى . ولقد نقل نيرفال مثلا وهو يتكلم عن سوريا بعض عبارات بحذافيرها من كتاب لين يصف فيه القرية المصرية واعتبرها وصفا دقيقا وصادقا للقرية السورية دون أن يهتم كثيرا بما قد عساه أن يوجد من اختلافات بين نمطى الحياة فيهما . فكأن كلام لين كان يستشهد به ويطبق على غير ما كتب فى الاصل من أجله ، وهذا دليل كاف على مدى ماكان يتمتع به من قوة نفوذ وسطوة فى مجال الاستشراق ، وأن كلامه كان كثيرا ما يقتبس ويستخدم فى مجالات غير تلك التى كتب فيها . وهذا يصدق على شيرين غير لين مثل بيكر Becker ومولر Müller وشتانيتال Steinthal ونولدكه Noldke وبروكلمان Brockelmann وجولدتسيهر Goldziher . وهذا هو ما كنا نقصده حين قلنا ان أى دراسة للاستشراق تعتبر ناقصة اذا لم تحط بحياة مثل هؤلاء العلماء وأعمالهم وتأثيرهم ومدى انتشار تعاليمهم وآرائهم فى مختلف المجالات .

والمهم من هذا كله هو أن المستشرقين كانوا يتكلمون عن الشرق كما لو كانوا يعرفونه خيرا من معرفة أبنائه به ، وهذا موقف يذكرنا بغير شك بموقف رجال السياسة والحكم الغربيين ازاء الشرق عموما والبلاد المستعمرة بالذات ... لقد كانت انجلترا وهى تحتل مصر تعتقد أنها تعرف معرفة وثيقة وأكيدة ، بل **ان مصر ليست أكثر مما تعرفه انجلترا عنها** ، وكانت انجلترا (تعرف) أن مصر لايمكنها أن تكون مستقلة أو أن تحكم نفسها بنفسها ، أو تتمتع بالحكم الذاتى ، ولذا فانها أكدت هذه (المعرفة) باحتلال مصر ... ان مصر هى ما احتلته بريطانيا وما تحكمه بريطانيا ... وعلى ذلك فان الاحتلال الاجنبي أصبح هو الاساس الحقيقي للحضارة

المصرية المعاصرة ... بل ان مصر كانت تريد من انجلترا ان تحتلها وتلح فى ذلك وتتمسك بهذا الاحتلال ... لقد كان بالفور Balfour يصف كرومر Cromer بأنه **صانع مصر .**

ولقد كانت (المعرفة) التى ترد فى كتابات المستشرقين تستخدم بغير شك فى توطيد أقدام الحكم الاجنبي والاستعمار على ماذكرنا من قبل، ولذا كان المستعمرون يرسمون للمجتمعات الشرقية ـ وفى ضوء تلك المعلومات ـ ليس فقط حاضرها بل ومستقبلها أيضا ، بحسب ما يتخيلونه انه الافضل لها . ومن هنا كانت الدول الاستعمارية ترفض مطالب تلك الشعوب بالتحرر، وتصف الوطنية والقومية بأنهما ضرب من ضيق الافق والانغلاق والميل الى الانعزال على ما كان كرومر يصف مطالب المصريين بالاستقلال . **فالشرقيون لا يعرفون مصالحهم الحقيقية التي** يعرفها الغربيون نيابة عنهم وبطريقة أفضل ، ولذا نصب الغربيون من أنفسهم اوصياء على الشرقيين ... **وفضلا عن ذلك فكثيرا ما** كان الشرقيون يظهرون فى كتابات (المستشرقين) ـ **بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ـ أناسا خاملين** متبلدين لايملكون الطاقة ولا المقدرة بل ولا الرغبة فى العمل . كما أنهم عاجزون عن المبادأة والمبادرة .. ان الشرقيين فى نظر الكثيرين من المستشرقين أقوام يحبون التملك ، كما أنهم يفتقرون الى الشعور والاحساس بآلام الآخرين، انهم لايعرفون معنى السير فى الطرقات وعلى الارصفة ، لأن عقولهم العاجزة الضعيفة لاتكاد تدرك مايدركه الأوروبي بسرعة وتلقائية من ان الطرق والأرصفة انما صنعت للسير عليها ... انهم يميلون بطبعهم للكذب والشك والارتياب فى نوايا الآخرين ... **انهم لايعرفون معنى الوضوح والصراحة** والاستقامة فى التفكير والسلوك ، وهى كلها امور تميز الخلق البريطاني النبيل ... وهذه الاقوال والاحكام وامثالها تتردد كثيرا فى كتابات كرومر وأمثاله الذين لم يكونوا يهتمون بالشرقيين الا من حيث هم يؤلفون (العنصر) او (المادة) التى يمارسون عليها عملهم ، وهو الحكم .

هذا كله انما يؤكد الراى الذى سبق ان أشرنا اليه من قبل فى أكثر من موضع عن أن **الاستشراق يتضمن نوعا من الاستعلاء من جانب الغرب والتخاذل من جانب الشرق ، وان الاستشراق لم يكن مجرد أسلوب للتعبير عن هذه التفرقة الجوهرية (فى نظر الغربيين على الاقل) ولكنه ساعد ايضا على تعميق الاحساس بها** ... ومن الطريف أن نجد ادوارد سعيد الذى يؤمن بهذا الرأى ويكرس دراسته عن « الاستشراق » لعرضه يذهب الى حد القول بأن بريطانيا فى حكمها للهند كانت تصر على أن يكون سن التقاعد للاداريين البريطانيين هناك هو الخامسة والخمسين حتى لاتتاح للهنود وغيرهم من الشعوب المستضعفة المحكومة فرصة لأن يروا الجنس الأرقى والاسمى فى حالة شيخوخة وعجز وتراجع ومرض . لقد كانت تريد أن تشعر هذه الشعوب دائما بقوة الرجل الغربى وتمايزه حتى من الناحية الفيزيقية .. والظاهر أنه حين يكتب عالم شرقي عن الاستشراق فانه لايستطيع ان يتخلص بسهولة من الاحساس بأنه ينتمى الى ثقافة (مستضعفة) و (خاضعة) لسلطة ثقافة أعلى وأوسع ، وهكذا كان ادوارد سعيد نفسه **الذى تلقى تعليمه فى الصبا فى بلدين عربيين كانا** فى ذلك الحين يخضعان للاستعمار البريطاني وهما فلسطين ومصر ، وكان تعليمه على أى حال تعليما غربيا ، ثم انتقل بعد ذلك الى أمريكا لكى يغترف من الثقافة الامريكية الغربية ، ويعيش فى أمريكا مواطنا امريكيا وأستاذا فى جامعاتها ، ولكنه كان طيلة الوقت مدركا لأصوله الشرقية العربية ، بل والاسلامية على الرغم من أنه لايدين

بالاسلام . ولم تكن حياته لذلك كله تخلو من الاحساس العميق بالالم ... وربما كان من أهم مايثير حفيظته على المستشرقين الامريكيين انه لم يجد من بينهم من استطاع ان يوحد بينه وبين العرب مثلما وجد منهم من استطاعوا التوحد مع الصهيونية . وقد ترك ذلك فى نفسه مرارة شديدة . والمقصود بالتوحد هنا التوحد السياسي والثقافي بحيث ينفعلون بما ينفعل به العرب سياسيا وثقافيا ، وليس مجرد التصدي للدفاع عن وجهة نظر العرب فى صراعهم ضد الصهيونية كما يفعل البعض بالفعل .

• • •

والشائع فى معظم الاوساط العلمية ان الاستشراق لم يتقدم ويصبح أحد مجالات المعرفة الانسانية الهامة الا منذ القرن التاسع نتيجة لحركة الترجمة الهائلة التي بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، حيث نقلت كثير من النصوص من اللغات العربية والسنسكريتية والزندية وغيرها اللغات الاوروبية، ثم ما ترتب على الحملة الفرنسية على مصر من زيادة الاهتمام بمصر والشرق وقوة العلاقات بين الشرق والغرب وتأثير كتاب « وصف مصر Description de L'Egypte » ، توجيه حركة الاستشراق الى مجالات كثيرة غير المجال اللغوى وارساء فكرة أن العالم الشرقي والاسلامي يمكن أن يكون معملا للفكر الغربي والبحث العلمي الذى يقوم به العلماء والاوروبيون . ولكن الواقع أن الاستشراق بالمعنى الدقيق للكلمة بدأ قبل ذلك بوقت طويل جدا ، وذلك حين صدر قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢ بانشاء عدد من (الكراسي) للغة العربية واليونانية والعبرية والسريانية فى جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وآفنيون Avignon وسلامنكا .

ومنذ ذلك الحين أخذت حركة الاستشراق تتضح وتتسع بالتدريج وبخطى ثابتة بحيث شمل اهتمام المستشرقين كل تلك المنطقة الجغرافية الواسعة التى تغطى نصف العالم ، وهو مالا يتوفر لاى مجال آخر من مجالات التخصص والمعرفة ، وان كان هذا نفسه ادى الى ظهور كثير جدا من الصعوبات أمام الدارسين والمتخصصين . ولكن اتساع هذه المنطقة الجغرافية وتنوع الثقافات واللغات والسلالات والاديان التي تضمها يكشف عن عنصر الطموح الذى يميز الاستشراق وعمل المستشرقين .

ومن الغريب أن نجد أن القاعدة العامة التي سيطرت على تطور الاستشراق كدراسة أكاديمية كانت هي اتساع مجاله باستمرار واطراد ، وليست قدرته على الاختيار والانتقاء كما هو الحال بالنسبة لفروع المعرفة الاخرى التي تميل بمرور الزمن الى زيادة التخصص الدقيق . فبينما تحاول العلوم والدراسات الاخرى حين يتسع مجالها الى أن تفصل عنها الفروع التي تمت وتطورت واتسعت بحيث تؤلف علوما مستقلة لها كيانها وموضوعها المتمايز ، فان الاستشراق كان يميل الى ان يستوعب جميع أنواع المعارف والتخصصات ما دامت تعالج موضوعات ذات صلة بتلك المنطقة الجغرافية الواسعة بصرف النظر عما يقوم بينها من اختلاف وتباين . ولقد ظهر هذا الميل الى التوسع والاستيعاب منذ عصر النهضة بوجه خاص . مثال ذلك ان اربنيوس

Erpenius وجيوم بوشتل Guillaume Postel كانا متخصصين أساسا فى اللغات السامية ، ولو ان بوشتل كان يفخر بأنه كان يستطيع ان يسافرفى المنطقة كلها حتى الصين دون ان يحتاج الى مترجم ، وظل المستشرقون حتى منتصف القرن الثامن عشر يركزون معظم اهتمامهم على دراسة اللغات السامية والكتب المقدسة والدراسات الاسلامية، ثم بدأوا يوسعون من اهتماماتهم ويمدونها بحيث شملت الدراسات الصينية والاديان الهندية وغير ذلك على ما سبق أن ذكرنا ، وما ان جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت المادة العلمية والمعلومات والتخصصات التي تدخل فى مجال الاستشراق تؤلف كنزا هائلا من المعرفة التي تفوق كل تصور .

وقد يمكن ان نستشهد على هذا الميل نحو الاتساع والاستيعاب بدليلين هامين : ـ

الاول هو الدراسة الموسوعية للاستشراق بين عامي ١٧٦٥ و ١٨٥٠ والتى قام بها ريموند شواب Raymond Schwap فى كتابه « **النهضة الشرقية** **La Renaissance Orientale** والذى يبين فيه أنه بالاضافة الى القدر الهائل من الدراسة والبحوث التي قام بها المستشرقون خلال هذه الفترة فان حمى الاهتمام بالشرق والانشغال لشئونه وحياته وثقافته لمست كل شاعر وكاتب مقال وفيلسوف ومفكر وفنان ، بحيث ظهرت بعض الملامح الشرقية فى تفكير وكتابات جميع المتخصصين والهواة والمتحمسين لكل ما هو شرقي ، وبالذات لكل ما هو آسيوى ، وبالاخص للعناصر الغربية والغامضة و (السرية) فى تلك الثقافات. ويعتبر شواب عن هذا التحمس او تلك الحمى بانها تشبه الهوس بالدراسات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية الذى ساد خلال ازدهار عصر النهضة فى اوروبا . وقد عبر فيكتور هيجو Victor Hugo عام ١٨٢٩ عن لك بقوله انه فى عصر لويس الرابع عشر كان الناس يتخصصون فى الدراسات الهيلينية فأصبحوا الان مستشرقين . وعلى أى حال فان هؤلاء (المستشرقين) كانوا ينقسمون الى فئتين كبيرتين ، **الاولى** فئة العلماء المتخصصين في الدراسات الاسلامية او الصينية او الاندو أوروبية ، او ما الى ذلك . **والثانية هي** فئة الكتاب والفلاسفة والشعراء والفنانين **المتحمسين للشرق ، أو الذين استخدموا ابداعهم الفني في تناول بعض نواحي الحياة الشرقية كما هو** حال فيكتور هيجو نفسه فى **Les Orientales** أوجوته Goethe فى ديوانية المشهور ، وان كانت هناك **فئة ثالثة** تجمع بين الاتجاهين ، ويدخل **فى هذه الفئة مستشرقون من أمثال ريتشاردبيرتون** وادوارد وليام لين وفردريش شليجل Friedrich Schlegel

والدليل الثاني على مدى اتساع الاستشراق وميله منذ مجمع فيينا الكنسي لاستيعاب كل ما يمت الى الشرق بصلة يتمثل فى وقائع **Chronicles** القرن التاسع عشر عن الدراسات الاستشراقية ذاتها . وربما كانت الوقائع التي تركها لنا جول موهل Jules Mohl بعنوان **((سبعة وعشرون عاما من تاريخ الدراسات الشرقية Vingt- Sept ans d'histoire des études orientales** والتي تقع فى مجلدين كبيرين يضمان كل ما له اهمية فى ميدان الاستشراق بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٧ هو من أهم هذه الوقائع أو التسجيلات التاريخية . ولقد كان موهل نفسه سكرتيرا للجمعية الاسيوية فى باريس . وكانت باريس خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر (وبعده أيضا) هي (عاصمة) عالم الاستشراق والمستشرقين ، ان لم تكن عاصمة القرن التاسع

عشر ذاته حسب ما يقول وولتر بنجامين Walter Benjamin . ولقد أتاح ذلك لموهل الفرصة لان يتعرف على كل ما صدر خلال تلك الفترة (الاعوام السبعة والعشرون) عن آسيا بمختلف اللغات ، وبذلك فان كتابه يضم عدداضخما من الاشارات للكتابات التي ظهرت بمختلف اللهجات الهندية واللغات العربية والعبرية والبهلوية والآشورية والبابلية والمنغولية والصينية والبورمية وغيرها ، كما شملت كل فروع المعرفة من انثربولوجية واركيولوجية وسوسيولوجية وتاريخية واقتصادية وادبية ودراسات وفولكلورية في جميع الثقافات الآسيوية وثقافات شمال إفريقيا المعروفة فى القديم أو فى العصر الحديث. . . ولم تكن (وقائع) موهل هي الوحيدة فى هذا المجال ، بل ان هناك الكثير من أمثالها وان كان مااشتملت عليه أقل من حيث العدد ، ولكنها لاتقل من حيث التنوع واتساع الاهتمامات .

وتكشف لنا هذه **الوقائع** عن مدى اختلاف المستشرقين فيما بينهم فى تحديد مفهوم (الشرق) وما يمكن ادراجه تحت هذه الدراسات الشرقية أو حركة الاستشراق . ولم يكن هذا الاختلاف قاصرا على البعد الجغرافى أو المكانى للشرق ، وانما امتد الى البعد التاريخي او الزماني ، بحيث دخل فى هذه الدراسات كثير من القصص والخرافات التي كانت شائعة فى الشرق ذاته . فحين حاول ديربيلو Barthelemy D'Herbelot فى موسوعته المعروفة باسم **المكتبة الشرقية** **Bibliotheque orientale** » التي نشرت عام ١٦٩٧ بعد موته والتي كتب مقدمتها انطوان جالان Antoine Galland فانه أحاط فيها بكثير جدا من الكتابات العربية والتركية والفارسية التي تناولت التاريخ واللاهوت والجغرافيا والعلوم والفنون في الشرق فى صورها الحقيقية والمتخيلة والجغرافية على ما يقول ادوارد سعيد . وجالان نفسه يقول فى ذلك ان « المكتبة الشرقية » تغطي فترة زمنية لا تبدأ فقط بخلق آدم وتمتد حتى العصر الذى نعيش فيه ، أو بحسب تعبيره « ''temps oû nous sommes ، بل ان ديربيلو رجع فى الماضي السحيق الى أبعد من ذلك « plus haut » وتوغل فى التاريخ الخرافي والازمنة الاسطورية والمراحل « قبل الآدمية » . فجاءت « المكتبة » تاريخا للعالم والخلق والطوفان وتدمير بابل وما اليها ، مع فارق واحد هام يميزها عن بقية الكتب التي عالجت مثل هذا الموضوع الواسع المتشعب ، ونعني به أن ديربيلو اعتمد فقط على مصادر شرقية بحتة ، كما انه قسم التاريخ الى (نوعين) : التاريخ المقدس والتاريخ المدنس ، وأدخل فى التاريخ المقدس اليهود والمسيحيين بينما أدخل المسلمين فى التاريخ المدنس ، كما انه ميز بين حقبتين أساسيتين هماما قبل الطوفان وما بعده . وفيما عدا ذلك ، فان ديبربيلو أعطى للعالم الاسلامي أو (الامبراطورية الاسلامية) جانبا كبيرا من اهتمامه واستعرض ما كتب عن هذا العالم الواسع الذى يمتد من أقصى الشرق الى « أعمدة هرقل » (يقصد جبل طارق) وبكل مافى هذا العالم من عادات وتقاليد وطقوس وأسر حاكمة ومدن وقصور وأنهار ونباتات وباحثين وغير ذلك . ولكن كتابته لم تكن تخلو من نغمة التحامل على «(محمد) الذى ألحق بالمسيحية كل تلك الاضرار وكل هذا الاذى » . وتعتبر « **المكتبة الشرقية** » **اضخم عمل علمي ظهر فى عالم** الاستشراق حتى ذلك الحين من حيث الشمول والاحاطة ، فضلا عن أنه لم يكن مجرد (تجميع) للمادة العلمية المتوفرة حينذاك ، وانما كان عرضا طيبا لهذه المادة ، كما أن ديربيلو كتب هذه

المكتبة بطريقة وأسلوب يعطيان القارىء فكـرةواضحة عن الجهود الفائقة التي تبذل فى مجال الاستشراق ، وأن هذه الجهود ليسـت جهوداضائعـــة .

• • •

ولقد كان الشرق يعتبر ـ باستثناء الاسلام ـ مجرد امتداد للغرب وتابعا له ومسرحا لسيطرته وسطوته وجزءا من تاريخه . وظل هذا الفهم قائماحتى القرن التاسع عشر . وهذا ينطبق على التجربة البريطانية فى الهند ، والتجربة البرتغاليةفى جزرالهند الشرقية والصين واليابان ، والتجربة الفرنسية والتجربة الايطالية فى مناطق كثيرة مـن الشرق ، وان كان هذا لم يمنع من قيام اضطرابات ضد هذه السلطة او التسلط فى تلك المناطق مـن حين لآخر ، مثلما حدث عام ١٦٣٨ ـ ١٦٣٩ حين قامت جماعة مـن المسـيحيين اليابانيين بطـردالبرتغاليين من المنطقة . ولكن فيما عدا ذلك كان الشرق الاسلامي والعربي هو المنطقة الوحيدة التي كانت تمثل تحديا سـافرا لاوروبا ، سـواء فى المجالات السياسية أو الثقافية ، بل وأيضا فى فترةمن الفترات فى المجال الاقتصادى . ولـذا كان الاستشراق يتميز خلال مرحلة طويلة من حياتهبهذا الموقف المعادى للاسـلام والمناوىء للثقافة الاسلامية . وهذه مشكلة من أهم المشاكل التي أولاها ادوارد سعيد جانبا كبيرا مـن عنايته في كتابة ، بل انها تكاد تكون هي النقطة المحورية التي يدور حولها الكتاب كله .

لقد كان شعور أوروبا بالتحدى الاسلامي قويا ومثيرا للرهبة والخوف ، فلقد كان الاسلام قريبا جدا من الناحيـة الجغرافية ، كما أنه كان يستمد كثيرا من معالمـه الثقافية مـن التقاليد اليهودية والهيلينية ، فضلا عن المسيحية التـي طوعها بشكل يدعو الى الاعجاب ، وذلك فضلا عما حققه من نجاح فى المجال العسكرى او الحربي .ولقد فتح الاسلام مناطق كثيرة كانت تعتبر معاقل حصينة للمسيحية ، بل ان (أرض التوراة والكتاب المقدس) ذاتها أصبحت من أهم مراكز الاسلام ، وقد ظل الاسلام ، سواء في صورته العربية أوالعثمانية أو الشمال افريقية أو الاسبانية يهدد أوروبا المسيحية حتى عام ١٥٧١ ،وقد أفلح خلال ذلك أن يزيح سلطان روما نفسها ويزلزله ، وهـو أمر لا يمكن لاى أوروبي فى الماضي أو الحاضر ان ينساه او يتناساه . ولذا فليس من المستغرب يحال أن نجد ان أول عمـل علمي كبير فى تاريخ الاستشراق بعد « مكتبة » ديربيلو كان كتـاب سـايمون أوكلـي Simon Oakley عـن تاريخ السراسنة History of the Saracens الـذى بين فيه كثيرا من الامور التي يجهلها الاوروبيون عن الاسلام وحضارته ، وقـد تكلم فى ذلك بصراحة وعمق أرثارتا كثيرا من الالم فى نفوسهم . وقـد صدر الجزء الاول من كتاب أوكل عام ١٧٠٨ .

الا أن الاهتمام بالدراسات الشرقية لم يأخذشكل (المشروعات البحثية) المدرسية بدقة الا بعد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ كما ذكرنا .وان كان سبق هذه الحملة مشروعان هامان كانا يهدفان الى (غزو) الشرق والكشف عن أسراره الحقيقية .

وقد قام بالمشروع الاول آنكتيل ديبيرون Abraham-Hyacinthe Anquetil Duperron (١٧٣١ ـ ١٨٠٥) وهـو مفكـر نظـرى غـريب الاطوار ، استطاع بشكل من الاشكال ان يوفق بين الكاثوليكية والجانزية والبرهمانية ، وقام بكثير من الرحلات والاسفار لكي يبرهن على وجود « شعب

الله المختار » بين الجماعات المختلفة عن طريق تتبع اصول اليهود ، ولكنه بدلا من ذلك كرس وقته لدراسة نصوص الآفستا Avesta وقام بترجمتها عام ١٧٥٩ ، ثم ترجم اليوبانيشاد Upanishads عام ١٨٧٦ وبذلك استطاع على ما يقول شواب Schwab ان يحفر قناة توصل بين العبقرية الانسانية فى نصفي الكرة الارضية . ويعتبر هذا الجهد من أول الجهود التى كشفت لاوروبا عن عظمة الشرق متمثلة فى نصوصه ولغاته وحضاراته .

ثم جاءت المحاولة الثانية على أيدى وليام جونز William Jones الذى غادر انجلترا الى الهند عام ١٧٨٣ وكان قد درس اللغات العربية والعبرية والفارسية ، ولكنه الى جانب ذلك ـ وربما كان هو الأهم ـ كان شاعرا وفقيها فى القانون ومتخصصا فى الدراسات الكلاسيكية . وقد عمل جونز مع شركة الهند الشرقية ولكنه على عكس مافعله آنكتيل ويبيرون كان يعمل على (ترويض) الشرق لكي يحوله الى (مقاطعة) او مجال للمعرفة الاوروبية . ولقد كتب فى السابع عشر من أغسطس عام ١٧٨٧ الى لورد آلثورب Lord Althorp يقول : « ان أملي هو أن أعرف الهند كما لم يعرفها أى أوروبي آخر » .. وهو في ذلك كان أسبق على بالفور الذى أدعى عام ١٩١٠ أنه يعرف الشرق أفضل من أى انسان آخر .

وكثير من المستشرقين الانجليز الاوائل فى الهند كانوا مثل وليام جونز من رجال القانون ، ولكن البعض كانوا ، وهذا أمر طريف ، من رجال الطب ممن وقفوا أنفسهم على خير الانسانية . ومعظمهم على أية حال كانوا يهدفون الى دراسة علوم آسيا وفنونها ، بقصد نقلها الى اوروبا من ناحية ، والعمل على تطويرها هي ذاتها من الناحية الاخرى .

ولكن الملاحظ بوجه عام أن (مشروعات) الدراسات الشرقية قبل حملة نابليون لم تكن يخطط لها تخطيطا كافيا ودقيقا بشكل يضمن لها النجاح ، ولم يكن (المستشرقون) يعرفون مقدما ماذا كانوا يريدون ، وانما كانوا يكتشفون مجالات بحثهم بعد وصولهم بالفعل الى المواطن أو المواقع التي اختاروها لتكون موضوعا لدراساتهم ، وذلك على عكس خطة نابليون التى كانت منذ البداية ـ وقبل ان تتحرك الحملة فعلا ـ تهدف الى احتواء مصر تماما . وقد وضعت الخطة على على هذا الاساس ، وهى خطة كان لها جانبها العسكرى والاستعمارى ، ولكن كان لها جانبها العلمى والثقافى ، وكانت مصر تعتبر الحلقة الاولى فقط ضمن سلسلة طويلة لاحتواء الشرق . ولقد تمخضت الحملة من الناحية العلمية ، وبخاصة من ناحية الاستشراق عن انشاء « المعهد المصرى Institut d'Egypte » بكل ما فيه من علماء ومفكرين فى مختلف فروع التخصص ، وهم الذين توفروا على دراسة مصر من مختلف الجوانب ، وعن تأليف كتاب « وصف مصر » الشهير الذى يقع فى ثلاثة وعشرين جزءا ضخما . ومن الطريف ان نذكر ان مساحة الصفحة فى الكتاب الاصلى كانت مترا مربعا كما لو كانت ضخامة المشروع نجد لها تعبيرا رمزيا فى حجم الكتاب ومساحة صفحاته .. وكان الكتاب ـ كما يذكر ادوارد سعيد ـ يهدف الى (صنع) مصر عن طريق احياء

تراثها القديم ونقلها هى ذاتها من حاضرها المتخلف الى حاضر اوروبا المتقدم الراقى ، والجمع بين هذا التراث القديم والحضارة الحديثة . وكثيرون لا يعرفون ان نابليون تأثر في وضع خطته بكتاب الكونت دوڤولنى Comte de Volney « رحلة فى مصر وسوريا Voyage en Syrie et en Egypte الذى ظهر فى مجلدين عام ١٧٨٧ . وقد تعرض فولنى فى الجزء الثانى للاسلام ، ولكن كتابته عن الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو نسق من النظم السياسية التى كانت تتسم بالعدوان والتحامل ، كما أنه كان بوجه عام يعتبر الشرق الادني مكانا يمكن ان تتحقق فيه اطماع فرنسا الاستعمارية . ومع ان الحملة الفرنسية على مصر فشلت عسكريا فأن النتائج العلمية التى حققتها كانت رائعة وبخاصة فيما يتعلق بتوجيه الدراسات الشرقية وتنمية حركة الاستشراق ، فقد ساعدت على ان تكتسب الكتابات بعد ذلك طابعا اكثر واقعية واقرب الى الحقيقة ، وان تعتمد فى المحل الاول على تسجيل الاحداث والظواهر والوقائع تسجيلا دقيقا ، الى جانب تحليلها كما فعل علماء « المعهد وهم يجمعون المادة العلمية التى استخدموها فى تأليف كتاب « وصف مصر » . ولا بد من ان تعتبر النتائج العلمية لهذه الحملة البداية الحقيقية لاهتمامات عدد من الكتاب بالشرق من امثال شاتو بريان ولامارتين Lamartine وفلوبير ، بل وايضا ادوارد وليام لين وريتشارد بيرتون .

وعلى اى حال فان اقدام نابليون على تنفيذ خطته وتأثره فى ذلك بقراءاته فى كتابات المستشرقين ثم ما ترتب على تلك الخطة من تقدم الاستشراق ، ثم استخدام المعلومات الجديدة الكثيرة في حكم الشعوب الشرقية هو دليل آخر على ما سبق ان ذكرناه عن العلاقة بين كتابة الغربيين وصمت الشرقيين ـ حسب تعبير ادوارد سعيد ـ نتيجة لقوة الغرب الثقافية ، وعلامة ايضا على هذه القوة . وفى هذا ينحصر الدور الذى لعبه الاستشراق فى التمكين للاستعمار من البلاد الشرقية ، اذ اصبح الاداريون والمستعمرون يعتقدون انهم يفهمون الشرق ما دام المستشرقون قد فهموه ، وقدموا لهم نتائج هذا الفهم .

ولقد ازداد الدور الذى يلعبه المستشرقون فى القرنين التاسع عشر والعشرين نتيجة لازدياد قوة العلاقة بين اوروبا والشرق ، اذ اصبح الشرق مجالا للتنافس السياسى والاقتصادى الغربى ، حيث كان الاوربيون يبحثون عن اسواق جديدة ومستعمرات جديدة وموارد اقتصادية جديدة ايضا . وكان المستشرقون اثناء هذا كله يؤمنون بان « الشرق شرق » وانه لا يتغير . وهذا اساس قوى لظهور النزعة العنصرية لدى عدد كبير منهم ، وان لم يكونوا جميعا قد عبروا عن ذلك بنفس الصراحة التى نجدها عند رينان . فالنزعة العنصرية نجدها عند الكثيرين كما هو الحال مثلا لدى شليجل ، الذى ينسب كثيرا جدا من الاوصاف والنعوت غير الكريمة للساميين وغيرهم من الشرقيين « المنحطين » ، وقد شاعت هذه الاراء بسرعة فى الثقافة الاوروبية . وكانت هذه التفرقة تعتمد اساسا على المقارنات الفيلولوجية (دراسة اللغويات المقارنة) ، اذ كان يبدو فى

كتابات هؤلاء العلماء انهم يؤمنون بوجود صلة قوية بين السلالة واللغة ، وهى صلة او رابطة لا فكاك منها .

• • •

وتضم «شجرة النسب» الرسمية للاستشراق والمستشرقين علماء من امثال جوبينو Gobineau ورينان وهمبولت Humboldt وشتاينتال وبورنوف Burnouf وريموسات Remusat وبالمر Palmer وفيل Weil ودوزى Dozy وغيرهم من العلماء الافذاذ فى القرن التاسع عشر ، كما انها تشتمل بالضرورة على عدد كبيرمن الجمعيات المتخصصة مثل الجمعية الاسيوية Sociétè Asiatique التى اسست عام ١٨٢٢والجمعية الاسيوية الملكية Royal Asiatic Society التى اسست عام ١٨٢٣ والجمعية الشرقيةالامريكية Aemrican Oriental Societx التى اسستعام ١٨٤٢ وغيرها من الجمعيات العلمية.الا ان هناك ميلا لدى البعض لان يسقطوا من هذه الشجرة الاسهامات الهامة التى تضمهاالكتابات الادبية الخيالية وكتب الرحلات والتى تبرز بوضوح وفى قوة وصراحة التمييزات والتقسيمات التى اقامها المستشرقون بين مختلف القطاعات الجغرافية والزمنية والسلالية فىالشرق . ومن الخطأ اغفال مثل هذه الاعمال العظيمة على الاقل بالنسبة للعالم الاسلامى لانهاتوضح نظرة الغربيين للاسلام والثقافة الاسلامية ورأيهم فيهماوتقويمهم لهما ،وشكوكهم وتحاملهمعليهما . وهذه الاعمال يدخل فيها كتابات جوتة وهيجو ولامارتين وشاتوبريان وكنجليك Kinglakeونيرفال وفلوبير ولين وبيرتون وسكوت Scott وبايرون Byron وفينى Vigny ودزرائيلىوجورج اليوت George Eliot وجوتييه Gautier ثم تلاهم في اواخر القرن التاسع عشر واوائلالقرن العشرين كتاب من أمثال داوتى Doughty وباريس Barres ولوتى Loti وفورستر Forester

ولقد حاول الكتاب المتأخرون ان يتخلصوامن الخيالات والاوهام التى كانت تسيطر على الكتاب الاوائل حين يكتبون عن الشرق ، كما لم يعودوا يختلقون احداثا لا وجود لها فى الواقع على ما كان يفعل فلوبير فى وصفة لسلوك النساءفى مصر وللحياة الجنسية الاباحية التى زعم ان المصريين يحيونها بحيث كان الرجل يجامع المرأةالتى تثير اعجابه فى الشارع وامام الناس وهم يشاهدون ويضحكون ، وكانت النساء فى زعمهيتصلن جنسيا بالدراويش للحصول على البركة بحيث مات احد هؤلاء الدراويش من الانهاك .ولكن ذلك لا يعنى ان هؤلاء الكتاب المتأخرين كانوا اكثر موضوعية على الرغم من كل ما يزعمونحول ذلك . فقد كان وراءهم تراث طويل من الكتابات المغرضة والمتحاملة والرومانتيكية، فضلاعن دفاعهم عن مصالح الدول التى كانوا ينتمون اليها والتى كانت تستعمر الشرق . وبعد ان نالتكل الدول الشرقية استقلالها فى الخمسينات من هذا القرن ، وانحسر الاستعمار الاوروبى ظهرت قوى استعمارية حديثة تتمثل في الولايات المتحدة الامريكية من ناحية والاتحاد السوفياتى منالناحية الاخرى ، واصبح الاستشراق يبحث له

عن دور يمكن ان يلعبه فى دول العالم الثالثالمستقلة والتى تقف من الغرب عموما موقف التحدى ،ولم يعد امام المستشرقين الا ان يسلكواحد طريقين اثنين : اما ان يستمروا فى بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل كما لو لميكن شيء قد حدث ، او ان يعدلوا أساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الاوضاع الجديدة ، وكلاالموقفين صعب ، خاصة وان الكثيرين من المستشرقين لا يكادون يعترفون بان الشرق قدتغير او يمكن ان يتغير . ويبقى بعد ذلك كلهطريق ثالث وهو ان يسقط علماء الغرب الشرق من اعتبارهم ويطوى سجل الاستشراق للابد . وقليل من العلماء هم الذين يرون فى هذا الطريق الحل الوحيد .

ولقد تعرض كاتب عربى آخر لهذه المشكلةوهو انور عبد الملك فى مقال رائع له بعنوان « الاستشراق فى أزمة Orientalism in Crisis »الذى نشره فى مجلة ديوجين Diogenes فى شتاء عام ١٩٦٣ ، ويرى انور عبد الملك الذى كان يشغل منصب الاستاذية في احدى الجامعات المصرية قبل ان ينتقل ليعيش فى باريس ان حركات التحرير الوطنية التى ظهرت فى البلاد الشرقية التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار هدمت الى حد كبير تصورات المستشرقين عن سلبية الشرقيين المستضعفين واستسلامهم وتواكلهم وذلك بالاضافة الى ادراك العلماء المتخصصين انفسهم ان الهوة اصبحت واسعة وسحيقة بين اهتمامات المستشرقين والاوضاع القائمة الان بالفعل وكذلك بين اساليب المستشرقين ومناهجهم ومفهوماتهم تلك التي يتبعها الان المتخصصون فى العلوم الاجتماعية والانثربولوجية والسلوكية . ولقد كان المستشرقون، على ما يقول انور عبد الملك ـ ابتداء من رينان الى جولد تسيهر الى ماكدونالد Macdonald الى فون جرونباوم Von Grunbaum الى جب وبرنارد لويس Bernard Lewis يعتبرون الاسلام « مركبا ثقافيا » يمكن دراسته بعيدا عن اقتصاديات الشعوب الاسلامية وحياتها الاجتماعية ونظمها السياسية ، الى ان جاء علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين اهتموا بالاسلام واتبعوا فى دراسته مناهج جديدة تماما تعالج الاسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد ، ووجدوا انه من الخطأ والخطر ان تترك دراسة الاسلام للمستشرقين وحدهم . والطريف ان جب نفسه تبنى هذه الفكرة وتحمس لها ابتداء من الستينات ووقف عددا من مقالاته ومحاضراته للدفاع عنها.

ولقد كان المستشرق الحديث يعتبر فى نظر الكثيرين بطلا كرس نفسه وجهده وحياته لانقاذ الشرق من الظلام والغموض والاغتراب والغربة التي كانت تخيم عليه ويعيش فيها دون ان يعرف العالم الخارجي عنه الا القليل ، ولذا كان يهدف من ابحاثه ودراساته الى اعادة تركيب الشرق وعاداته وتفكيره وتقاليده المفقودة مثلما أعاد شمبليون تركيب اللغة الهيروغليفية من حجر رشيد . وكانت وسيلته الاساسية فى ذلك هي الالتجاء الى دراسة الاساليب اللغوية ، او على الاصح النحو ثم الترجمة وفك رموز تلك اللغات ،سائدة فى الشرق الكلاسيكي القديم ، وكذلك قيم العلوم التقليدية التي كان يستعين بها فى عمله مثل الفيلولوجيا والتاريخ . ولكن لم يلبث كل شيء ان تغير بمرور الزمن .. لقد تغير الشرق مثلماتغيرت العلوم التي يستعين بها المستشرقون فى

محاولته فهم الشرق .. لم يعد للشرق الكلاسيكي التقليدى الذى كان المستشرقون يغرمون بدراسته وجود ، لانه بدأ يساير العصر الحاضر ويستجيب للتغييرات الكثيرة الطارئة ، كما دخل كثير من التعديل والتطور على أدوات البحث ومناهجه لكي تلائم الثقافة المعاصرة . وعلى العموم فان انتقال الشرق الى العصر الحديث اضطر المستشرقين الى اعادة النظر فى الاساليب التي يتبعها ، وان يرسي مناهجه ووسائل بحثه على أسس قوية تسمح لها بالاستمرار وبحيث يمكن للاجيال التالية ان تستخدمها وتعتمد عليها لاحراز مزيد من التقدم في جمع المعلومات المؤكدة عن حياة الشرق وثقافاته . أى ان تغير الظروف اضطر المستشرقين الى تغيير نظرتهم الى انفسهم والى مجال دراستهم والى اساليب البحث التي يستخدمونها ، وهذا ادى بدوره الى أن يتخذ الاستشراق طابعا علميا واكثر موضوعية من الدراسات التي كان يقوم بها المستشرقون الرواد ، كما أدى الى احداث تغييرات جذرية فى الدور الذى يقومون به فى الحياة العامة .

ولقد سبق ان اشرنا فى اكثر من موضع الى رأى ادوارد سعيد وأنور عبد الملك فى الجهود التي قام بها المستشرقون منذ القرن التاسع عشر ـ بوجه خاص ـ فى مد نفوذ الغرب الى البلاد الشرقية التى تخصصوا فى دراستها وان هذه الجهود استمرت حتى الوقت الحالى . فبانتهاء الحرب العالمية الاولى كانت اوروبا قد احتلت اكثر من ٨٠٪ من الكرة الارضية ، وعلى ذلك فحين نقول ان الاستشراق الحديث كان مظهرا هاما من مظاهر الاستمار ، وتكوين الامبراطوريات فان هذا القول لن يكون مغايرا للحقيقة ، وسوف يجد من الوقائع والاحداث ما يؤيده . فموقف المستشرق الحديث يختلف اختلافا جذريا عن موقف المستشرقين الرواد الاوائل من امثال ديربيلو D'Herbelot الذين كانوا يعتبرون الاستشراق نوعا من النشاط الذهني والمجهود العلمي النظرى فى المحل الاول ، وذلك بعكس ما هو عليه الوضع بين المستشرقين المحدثين الذين يؤمنون ان هذا المجهود لا بد من ان تكون له اهداف أبعد من الحدود العلمية الخالصة بحيث يتعدى الناحية النظرية الى المجالات التطبيقية التي تتمثل بوجه خاص فى الافادة من المعلومات الوفيرة فى مد نفوذ الغرب على المجتمعات الشرقية . فاعادة تركيب لغة من اللغات القديمة المبنية مثلا يعني فى آخر الامر اعادة بناء جزء ميت او مهمل من الشرق وبث الروح فيه ، وبذلك يمكن القول ان (العلم) الذى يساعد على تحقيق هذه العلمية الاحيائية يمكنه ، بل ويجب عليه ، ان يمهد الطريق لمهام اخرى تضطلع بها الجيوش والحكومات الغربية فى الشرق . وكما يقول ادوارد سعيد فى ذلك : ان هذه مسألة يجب الا تغيب أبدا عن اذهاننا نحن الشرقيين ونحن ندرس حركة الاستشراق وحياة المستشرقين من أجل التعرف على الجهود التي قاموا بها وعلى طبيعة اسهامهم في دراسة الشرق ونوع اهتماماتهم والدوافع التي تكمن وراء ذلك كله .

وفى اوائل القرن العشرين بوجه خاص حاول الاستشراق (تسليم) الشرق للغرب واتبع فى ذلك وسيلتين هامتين الاولى هي الاستفادة الى اكبر حدد ممكن من « امكانات » المعرفة الحديثة

ووسائل تقديمها ونشرها بين الناس ، ويستوى فى ذلك المدارس بمختلف مراحلها والجامعات ، وانشاء الجمعيات المتخصصة والمؤسسات التي تهتم بالبحوث والاكتشافات الجغرافية او الهيئات التي تشجع على الرحلات والارتياد او دور الطباعة والنشر ، بهدف تسهيل نشر المعلومات عن البلاد الشرقية من وجهة نظر المستشرقين انفسهم . وليس المهم فى ذلك هو نشر معلومات بالذات وافكار محددة عن الشرق بين الغربيين ، وانما المهم هو أن الشرقيين انفسهم اصبحوا ينظرون الى انفسهم بنفس المنظار الذى ينظر به الغربيون اليهم ، وتقبلوا الى حد كبير الى الاقل رأى الغرب فيهم ، وان هناك كثيرون ينكرون على الغرب تلك الرؤية على ما سبق ان ذكرنا .

والوسيلة الثانية هي اضطلاع المستشرق الحديث بمهام اخرى اضافية لم يكن المستشرقون الاوائل يدخلونها فى اعتبارهم ، او على الاقل لم يكونوا يعطونها كل ذلك الاهتمام ، وهي مهام تخرج عن نطاق (العلم) النظرى الخالص وتحقق اهدافا تتعلق بالحكومات الاوروبية ورغبتها فى السيطرة ومد النفوذ الى ربوع الشرق .. فلقد ظل المستشرقون لاجيال طويلة يدرسون الشرق عن طريق دراسة النصوص ومحاولة شرحها وترجمتها مع دراسة حضارات الشرق واديانه وثقافاته وانماط تفكيره بل و (عقليات) اهله ، على انها موضوعات اكاديمية تستحق الدراسة والقاء الضوء عليها من وجهة نظر خارجية ـ أى أن المستشرقين كانوا يعتبرون انفسهم متخصصين فى مجال معين من مجالات المعرفة وان عملهم ينحصر فى دراسة الشرق ومحاولة تفسيره وتقريبه لمواطنيهم فى الغرب ، وكان معنى ذلك ان المستشرقين ظلوا ـ برغم جهودهم هم للتغلغل فى حياة الشرق و (عقله) ـ أغرابا عن الشرق ، كما ظل الشرق نفسه بعيدا عن أفهام الغربيين . وقد انعكس هذا (البعد) فى كثير من الاوصاف والنعوت والتشبيهات التي كان المستشرقون انفسهم يطلقونها على الشرق والشرقيين ، والتي تصفهم بالغموض أحيانا واللامنطقية احيانا اخرى وما الى ذلك .. ولكن هذا البعد (الثقافي) بدأ يضيق بالتدريج نتيجة لانتشار المصالح الغربية السياسية والتجارية التي كانت تتطلب فهم (واقع) الشرق والشرقيين ، وكان المستشرقون ايضا ـ او بعضهم على الاقل ـ هم اداة الحكومات فى ذلك . فقد لعب هؤلاء المستشرقون دور (العميل) لحكوماتهم وحاولوا تفسير الشرق لتلك الحكومات بطريقة تشبع رغبات الحكومات وانها تتفق مع أغراضها ... لقد أخذ المستشرقون والرحالة الاوروبيون يعتبرون انفسهم ممثلين للغرب الذى ينتمون اليه. ولعل خير مثال لذلك هو العالم البريطاني ادوارد هنرى بالمر Edward Henry Palmer الذى ارسل الى سينا عام ١٨٨٢ لكي يخفف من حدة المشاعر ضد البريطانيين أيام الثورة العرابية ، وقد قتل بالمر أثناء ذلك . وقد يعتبر بالمر مثالا لفشل المستشرق في تحقيق أهداف حكومته ، ولكن هناك حالات كثيرة جدا اضطلع فيها المستشرقون بمهام وأعمال مماثلة وادوا خدمات (جليلة) لاوطانهم عن طريق ادائهم لهذه الاعمال . ووضع بلمر فى ذلك يختلف تماما عن حالة مستشرق بريطاني آخر هو هوجارت D. G. Hogarth الذى ضمن رحلاته واكتشافاته فى شبه الجزيرة العربية كتابا أطلق عليه عنوانا له مغزاة ومدلوله وهو The Penetration of Arabia وقد أصدره عام

١٩٠٤ . وقد عين هوجارت بعد ذلك رئيسا لما يعرف باسم « المكتب العربي Arab Bureau » في القاهرة أثناء الحرب العالمية الاولى ، وأدى لحكومته من خلال هذا المكتب ومن خلال معرفته بالشرق كثيرا من الخدمات. وليس من قبيل المصادفة أن يحتل عدد من الشخصيات البريطانية ـ نساء ورجالا ـ ممن اهتموا بالشرق مراكز بالغة الخطورة اما فى بلادهم او فى بلاد الشرق نفسه ، واستطاعوا منها أن يفيدوا أوطانهم بشكل رسمي أو غير رسمي ، معتمدين فى ذلك على صداقتهم للشرق . ويكفى أن نذكر هنا أسماء جرترودبل Gertrude Bell ولورانس T. E. Lawrence وفيلبي St. John Philby ولكن القائمة طويلة وتضم أسماء كثيرين من الكتاب والرحالة والمكتشفين ممن لعبوا دورا فى رسم سياسة الغرب تجاه الشرق . ولكن هؤلاء جميعا لم يكونوا (علماء) بالمعنى الدقيق للكلمة ، وان كانوا استفادوا من خبرة العلماء وعملهم وجهودهم . ولم تكن مهمتهم التهوين من بحوث العلماء أو التشكيك فيها أو القضاء عليها وانما على العكس من ذلك كانوا يفيدون منها ويستغلونها فى تحقيق الاهداف التي رسمتها لهم حكوماتهم ، وكان لابد لهم لتحقيق ذلك من ان يفسروا نتائج أبحاث العلماء تفسيرا يتلائم مع تلك الاهداف .

والدور الذى لعبه الرحالة والعملاء وصناع السياسة فى هذا المجال يكشف بطريقة واضحة عن نوع التحول الذى طرأ على الاستشراق ، وكيف انه لم يعد مجرد تخصص علمى اكاديمى بحت ، وكيف ان المستشرقين انفسهم ـ او عددا كبيرا منهم على الاقل ـ قد تحولوا من الموقف الاكاديمى الى ان يصبحوا ادوات فى ايدى حكوماتهم . وكان لا بد لهذا التحول فى الموقف من ان ينعكس على شخصية المستشرق ذاته وبنظرته الى نفسه فلم يعد المستشرق فى الاغلب يعتبر نفسه عالما ينتمى الى طائفة او فئة من العلماء لهم قيمهم وطقوسهم العلمية وتقاليدهم واخلاقياتهم ومبادؤهم التى تتحكم فى عملهم ، وتوجه هذا العمل ، كما ترسم لهم سلوكهم داخل نطاق هذه الطائفة او الفئة ، وانما اصبح يعتبر نفسه ممثلا لثقافته الغربية ضد ثقافة الشرق ، وبذلك انطوت شخصيته وعمله على نوع من الازدواجية التى تتمثل فى نظرته الى النشاط الذى يقوم به على انه تعبير رمزى عن الشعور او الاحساس بالذات الغربية والمعرفة الغربية والعلم الغربى والسيطرة الغربية ، التى تمسك بتلابيب الشرق وتحاول التغلغل الى اعماقه بقصد اخضاعه واذلاله .

ومن الصعب على كثير من الناس ان يتصوروا مدى اتساع نطاق اهتمامات المستشرقين الاوائل او نوع الدراسات التى كانوا يقومون بها ، وكيف ان هذه الدراسات كانت تتشعب بهم بحيث تتطرق الى جميع جوانب الحياة الاجتماعية والفكرية والعقائدية فى منطقة واسعة جدا من الارض تضم عددا كبيرا من الثقافات الفرعية التى تندرج تحت ثقافة عامة واحدة . فلم يعد يوجد الان من يزعم انه متخصص فى الدراسات الاسلامية فى عمومها واطلاقها كما كان الحال بالنسبة لهؤلاء المستشرقين الاوائل ، وان كنا نجد علماء فى الانثربولوجيا او علم الاجتماع

او التاريخ يتخصصون فىجانب معين من الثقافةالاسلامية إفي مجتمع اسلامى محدد ، او فى نظام اجتماعى معين ايضا لدى الطوائف الهندية اوحتى فى طائفة هندية واحدة ، او فى فترة تاريخية محددة بالذات وهكذا ، وان كان هذاالتخصص الدقيق لا يمنع مع ذلك من ان يحيط ذلك الباحث المتخصص بقدر الامكان بجوانباخرى من الثقافة العامة او المجتمع القوى الكبير او حتى من المنطقة الثقافية كلها التىيدرس فيها ذلك الموضوع المحدد الذى يكرس له معظم وقته وجهده . ولم يعد هؤلاء الانثربولوجيوناو السوسيلوجيوناو المؤرخون يعتبرون انفسهم (مستشرقين) بالمعنى التقليدى القديم،كما لم يعودوا يطلقون احكاما عامة فضفاضة يزعمون انها تلخص خصائص ومقومات الدياناتالهندية مثلا او الشخصية الاسلامية بعامة ، وانما هم يهتمون بدراسة (مناطق) او نظممحددة دراسة تفصيلية مركزة بحيث تأتى احكامهم موضوعية وبعيدة بقدر الامكان عنالانطباعات الحدسية التى كانت تزخر بها كتابات المستشرقين .

ولا يمنع هذا الميل الى التخصص الدقيقمن ان الكثيرين من هؤلاء العلماء لا يزالون يلعبون دورا اساسيا فى تشكيل سياسة حكوماتهم ازاءالشرق . وقد نأخذ نحن الشرقيين ذلك على هؤلاء العلماء والمتخصصين خاصة وان هذاالسلوك من جانبهم يتعارض فى الاغلب مع مصالحنا واهدافنا ، بل وقد تعتبر عملية(تسليم) الشرق للغرب عملية تتعارض مع القيم العلمية الخاصة . وكثير من هؤلاء العلماءكانوا بالفعل ، ولا يزالون، عملاء لمخابراتبلادهم فى الشرق . ولكنهم من وجهة نظرهم هم ، ومنوجهة نظر حكوماتهم ، مواطنون يؤدون لاوطانهم خدمات جليلة . وهذه المآخذ تتردد فى مواضعكثيرة من كتاب ادوارد سعيد ومقال انور عبد الملك وكتاباتالكثيرين غيرهم منالكتابالشرقيينالذين يتعرضون لتقويم (التجربة الاستشراقية) من وجهة نظرهم كشرقيين . وكثيرا ما يوصفالاستشراق فى هذه الكتابات بانه ضرب من (المعرفة الاستعمارية) او انه (علم استعمارى)،تماما مثلما توصف الانثربولوجيا فىبعضالكتابات العربية بهذه الصفة ذاتها نظرا لان بعض علماءالانثربولوجيا من البريطانيين وضعوا خبراتهم وعلمهم فى خدمة حكوماتهم ضد المجتمعاتوالشعوب التى كانوا قد درسوها وتخصصوا فيها .. ولكن للمسألة وجها آخر يخلق بناان نوليه ما يستحقه من عناية واهتمام، وهو ان هذا التصرف من جانب هؤلاء المستشرقين يدلبشكل او بآخر على مدى تقدير الحكومات الغربية لعلم العلماء واستعانتها بهم والافادة منخبراتهم فيما يعود على اوطانهم بالخير . وهذا موقف خليق بحكوماتنا فى الشرق ان تتدبره وانتأخذه فى الاعتبار بحيث نعيد النظر فى مسألة العلاقة بين رجال الحكم ورجال العلم وكيفيةاستفادة الدولة من علمائها ومن خبراتهم فى رسم سياساتها .

ويثير هذا تساؤلا آخر هو : ماذا فعلالعلماء الشرقيون لدراسة ثقافاتهم وتراثهم الطويل العريق ومجتمعاتهم التقليدية ؟ وما هياسهاماتهم فى حركة (الاستشراق) أو على

الاصح الدراسات الشرقية التى ظلت لقـرون طويلة وقفا على العلماء الغربيين ؟ صحيح ان هناك حركة نقد قوية يقوم بها الآن عدد مـن العلماء الشبان فى مختلف بلاد الشرق تهدف الى فحص التراث الذى تركه المستشرقون الاوائل وتقويمه والرد على الاراء والافكار التى تصـدر عن (المستشرقين) المعاصرين ، وصحيح ان هذه الحركة تلقى كثيرا من الضوء على بعض الجوانب الخفية فى التراث الشرقى نفسه ، وتوضح بعض النواحى التى لم يستطع (العقل) الغربى فهمها على حقيقتها ، كما انها تكشف عن الدوافـع والاهداف التى تكمن وراء كثير من الاعمال التى قام بها المستشرقون ، ولكنها تبقى بعد هذا كله حركة سلبية الى حد كبير ، خاصة وان الغالبية العظمى من علماء الشرق لا يزالون يعتمدون فى كتاباتهم على ما تركه لهم هؤلاء المستشرقون ، ويكاد دورهم هم ينحصر اما فى ترديد الافكار والاراء والنظـريات التـى وردت فى اعمـال المستشرقين ، او نقدها ومحاولة تجريحها ، دون ان يكون هناك اسهام ايجابى وخلاق الا فى القليل النادر. والكتاب الشرقيون حين يتخذون هذا الموقف السلبى انما يؤكدون من حيث لا يدركون دعوى الغربيين ـ او بعضهم على الاقل ـ عن سمو العقلية الاوروبية او الغربية بوجه عام، وسيطرتها وعجز العقلية الشرقية عن الخلـق والابداع والابتكار والاكتفاء بالمحاكاة .

وقد يكون من العسف والاجحاف ان نصف كل هؤلاء المستشرقين بانهم كانوا فى دراساتهم وكتاباتهـم وفى اتخـاذهم الشـرق موضوعـا لتخصصهم يصدرون عن الشعوب بالاستعلاء ، وهو الرأى الذى يتردد بكثرة فى كتابة ادوارد سعيد ، كما نجده متضمنا فى بعض الكتابات الاخرى التى تصدر عن افلام شرقية فى مجال تأريخها لحركة الاستشراق والمستشرقين ونقد كتاباتهم . وربما يكون مرد هذا الرأى ليس موقف التعالى من جانب المستشرقين بقدر ما هو الشعور بالنقص والعجز من جانب الشرقيين انفسهم ، وعدم القدرة ـ لاسباب قد تكـون خارجة عن ارادتهم ـ عـن مجـاراة حركـة الاستشراق فى حجم المجهود الذى بذل ، والعمل الذى تم انجازه على ايدى المستشرقين حتى الان، وذلك فضلا عن الشعور الطبيعى بالاستخذاء حـين يحس الشرقيون انهم (موضـوع بحث ودراسة) من غيرهم كما لو كانوا (حيوانات معملية) يجرى عليها الاخرون بحوثهم دون ان يسهموا هم فى ذلك شيئا . والوضع هنا يشبه الى حد كبير الوضع فى الدراسات والبحـوث الانثروبولوجية الميدانية التى كان يجريها علماء الانثروبولوجيا الاوائل على الشعوب غير الغربية، وكانت تقابل فى احيان كثيرة بكثير من الامتعاض والاعتراض والهجوم من جانب القلة المثقفة فى تلك المجتمعات . ولم تتوقف حملات التشكيك فى اهـداف الانثربولوجيـا والنقـد للكتابـات الانثربولوجية الغربية الا بعد ان ظهر جيل من الانثرولوجيين (الوطنيين) فى افريقيا واسيـا وغيرها ، اسهموا بجهودهم فى دراسة الثقافات التى ينتمون اليها ، وتغلبوا بذلك على مشاعر النقص والعجز التى كانت تستحوذ عليهم وتتحكم فى مواقفهم ضد الانثربولوجيا والانثربولوجيين.

وليس فى هذا القول اى محاولة للتهوين من شأن الانتقادات التى يوجهها العلماء الشرقيون للمستشرقين ، كما انه لا ينطوى بالضرورة على الدفاع عن موقف هؤلاء المستشرقين من الشرق الذى هو موضوع تخصصهم . فلقد سبق ان رأينا مدى التحامل الذى تتضمنه كتابات الكثيرين منهم ، وبعض هذا التحامل ينجم عن عدم القدرة على التغلغل فى فهم (العقل) الشرقى و (الروح) الشرقية ان صحت هذه التسمية ، ولكن البعض الاخر يأتى نتيجة لموقف متعمد ضد الشرق والشرقيين ، كما يظهر مثلا فى كتابات برنارد لويس Bernard Lewis الذى يتمتع بمكانة علمية ممتازة فى عالم الاستشراق. وتتضمن كتابات لويس كثيرا من الهجوم والتهكم والسخرية من العرب والاسلام ، وان كان يغلف ذلك كله فى اسلوبه البارع بحيث يكسب كتاباته مسحة من الموضوعية المزيفة ، فى الوقت الذى يكيل فيه الاتهامات للاسلام ويصفه بانه دين معاد للسامية او على الاصح « ايديولوجية معادية للسامية » . وان المسلمين كغيرهم من الشعوب التي رزحت لفترة طويلة تحت وطأة الاستعمار عاجزون عن قول الصدق او رؤيته او تقلبه . وهى اقوال انتقلت الى بعض الكتاب العرب والمسلمين الذين يرددونها بغير مراجعة. ولكن الامر يتطلب من العلماء فى الشرق ان يتخطوا مرحلة التصدى للكتابات الغربية بالنقد والتقويم الى الدراسة الجادة العميقة ، والتغلغل الى اعماق التراث الشرقى الوفير العميق ودراسته وعرضه والتعريف به . ومثل هذه الجهود يجب ان تلقى ما تستحقه من توجيه وتشجيع ، ليس فقط من المنشآت والمعاهد العلمية ، بل وايضا من الحكومات ، لانها جهود تهدف ليس فقط الى التعريف بالشرق وتراثه وانما سوف تحقق فى اخر الامر توكيد الذات واثبات الكيان وفرضه على الاخرين .